د. محمود مصطفى حلاوي*

دور المخطوطات
في مشروع الإحياء الإسلامي

(الصفحات ٤١- ٥٠)

ملخّص

يثير صاحب المقال عدة أسئلة ترتبط بدور التراث المخطوط في الإحياء الإسلامي، ويرى أن إحياء التراث يساهم في إحياء العلاقات بين الشعوب الإسلامية، ويعيد إلى الأذهان فكرة الوحدة الثقافية بين المسلمين، غير أن ذلك يتطلب لقاءات مستمرة بين العاملين في هذا الحقل، وتنسيق العمل بينهم على مستوى الأفراد وعلى مستوى المؤسسات، والابتعاد عن رغبة الاستئثار والاستفادة من تقنيات الحاسوب لتبادل التجارب وتصوير المخطوطات وعرضها، والتعرف على أماكن وجودها، وتيسير الحصول عليها.

يتناول هذا البحث طرح عدّة نقاط (تساؤلات) تتعلّق بمفهوم الإحياء الإسلامي، وبدور المخطوطات في هذا الإحياء، حتى يُصار إلى مناقشته والوصول إلى مدلول واضح له، وكذلك تقديم مقترحات عمليّة تساعد على تحقيقه.

* - أستاذ جامعي لبناني.

أوّلاً - ما المقصود بالإحياء الإسلامي؟

هل هو إحياء التراث الإسلامي، أم إحياء الاهتمام به، أم إحياء التعاون بين العلماء والباحثين المهتمّين بدراسته ونفض الغبار عنه، أم بإحياء العلاقة بين شعوب العالم الإسلامي، أم كلّ هذا مجتمعًا ؟

إن كل هذه التساؤلات تتزاحم معًا وتتطلّب منّا البحث عن إجابات واعية لها، إجابات تكون على مستوى الطموحات وآمال العاملين في حقل المخطوطات العربية.

من البديهيّ القول: إنّ مفهوم الإحياء الإسلامي يجب أن يتناول إحياء التراث الإسلامي الذي خلّفه لنا الأجداد في مختلف المجالات الثقافية والأدبية والعلميّة، والذي ما يزال معظمه قابعًا في المكتبات العامة والخاصة والمساجد والأديرة وغيرها من الأماكن، يبحث عمّن ينفض عنه غبار السنين، ويخرجه من عالم النسيان إلى عالم التذكّر، ومن عالم الظلمة إلى عالم النور.

إنّ أول عمليّة إجرائيّة في هذا الخصوص يجب أن تتركز على فهرسة هذا التراث، فهرسةً علميّةً دقيقةً، تُجنِّب الباحثين الوقوع في متاهات المفهرسين غير الرصينين، أو الذين لا يملكون العلم والخبرة الضروريين للقيام بمثل هذا العمل.

لكن الوقوف عند عمليّة الفهرسة دون نشر الفهارس لا يجدي نفعًا ولا يحيي مواتًا، لأن المهم تعريف الباحثين والمهتمّين بالتراث وبنشر ما لدى هذه المؤسسة أو تلك من مخطوطات يمكن الاستفادة منها في عمليّة إحياء تراثنا الدّفين والثمين.

ومما لا شكّ فيه أنّ تراثنا المكتوب باللغة العربية هو تراث إسلامي عالمي، بمعنى أنّ علماء العالم الإسلامي في مختلف العصور الإسلامية هم الذين ساهموا في تكوينه، حيث كانت اللغة العربية هي لغة الثقافة والفكر والأدب، باستثناء بعض الواحات الثقافية والفكرية التي استُخدمت فيها اللغة المحلّية.

من هنا يمكن القول: إنّ إحياء التراث الإسلامي يساهم بشكل مباشر في إحياء العلاقات بين الشعوب الإسلامية كافة، ويعيد إلى الأذهان فكرة الوحدة الثقافية والفكريّة، فكرة الانتماء إلى هذا الإرث الحضاري الذي جمعنا الإسلام تحت لوائه،

خاصة إذا تمّت صياغة أسس تعاون بنّاء بين العلماء والباحثين المنتشرين في مختلف بلاد العالم الإسلامي.

ثانيًا - هل للمخطوطات دور حقيقي في مشروع الإحياء الإسلامي؟

وما هو هذا الدَّوْر؟

لا أظنّ أنَّ للمخطوطات بحدّ ذاتها دورًا حقيقيًّا في مشروع الإحياء الإسلامي، فهي مصدر من مصادر المعرفة، وهي تختزن إرثًا فكريًّا وحضاريًّا يجب إخراجه من ظلمات الجهل به إلى نور التعرّف عليه ؛ فالتعرّف يشكّل اللبنة الأولى لبناء علاقة بين قُطبيْن : المخطوط من جهة والمتعرِّف عليه من جهة ثانية.

وبشكل أكثر دقّة، فإنَّ التعرّف يحصل بين مؤلف المخطوط وما يعنيه لنا هذا المؤلف من فكر وثقافة وتاريخ وحضارة وعلاقات علميّة وإنسانيّة من جهة، والمتعرّف على المخطوط بكل ما يعنيه من فكر وثقافة وما إلى ذلك من جهة ثانية.

إنّ إحياء هذه العلاقة بين هذين القطبين قد يساهم في مشروع الإحياء الإسلامي،لأن المعرفة نور والجهل ظلام، ولأنّ الإنسان عدوّ مايجهل، فبناء قاعدة معرفية صحيحة يساعد على بناء جسور التواصل والتلاقي التي تُعدُّ أساس عمليّة الإحياء.

إنّ دور هذه المخطوطات يكون إيجابيًّا وفعّالاً إذا أخذنا بالحسبان أننا عندما ندعو إلى لقاءات أو ندوات أو مؤتمرات تتمحور حول المخطوطات، أننا نجمع في هذه المؤتمرات رجال العلم والفكر والثقافة في العصور الغابرة، فنستحضرهم ونضعهم على طاولة واحدة مع رجال العلم والفكر والثقافة المعاصرين، ويكون النقاش إيجابيًّا، يهدف إلى الاستفادة من علمائنا القدامى بالقدر الذي يحتاجه علماؤنا اليوم، فيكون البناء الحديث قد أُسس على قواعد متينة وجذور صلبة قويّة راسخة، فلا قيمة لبناء بلا أُسس، ولا بناء بلا قواعد راسخة، وويل لأمَّة تبني بأُسس غيرها أو على أرض لا تمتلكها، خاصة إذا كانت الأسس التي لديها متينة ضاربة في الأعماق،وكانت الأرض التي تمتلكها شاسعة واسعة، أورثها إيّاها الملك العزيز،صاحبها ومدبّر أمرها وأمر من عليها.

ثالثًا - كيف يمكن تفعيل دور المخطوطات في تحقيق هذا المشروع؟

إن مشروع الإحياء الإسلامي باستخدام وسيلة المخطوطات هو مشروع يحتاج بقدر أهمّيته إلى جهود الكثير من المخلصين المؤمنين بالدوْر الذي يمكن أن تؤديه هذه الوسيلة، فتأتي المؤتمرات والندوات واللقاءات متقنة التنظيم، واضحة الأهداف، متعاونة إلى أبعد حدود مع معظم الجهات القادرة على إنجاحها، بحيث تتضافر الجهود وتتكامل دون منافسة إلاّ على إنجاح هذه المؤتمرات لا إلى تحقيق نجاحات ذاتية وفردية ضيّقة، فيد الله مع الجماعة وعليها. وعلى جميع المشاركين تقديم أقصى ما لديهم من قدرات وإمكانات مادية وعلمية وتنظيمية، دون أن يبخل أحد بما أعطاه الله من قدرات.

رابعًا - من هي الجهة أو المؤسسة أو الهيئة التي يمكن أن تتولّى هذا المشروع

من حيث إدارته والإشراف عليه وتمويله ومتابعة قراراته أو توصياته وتأمين كل متطلّبات نجاحه ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتعلّق مباشرة بالإجابة على السؤال الأول، وهو تحديد مفهوم الإحياء الإسلامي والمقصود منه ؛ فإذا تمّ الاتفاق أنَّ المقصود بالإحياء الإسلامي هو إحياء مفهوم التعاون بين الباحثين والعلماء في العالم الإسلامي أو بين المؤسسات العاملة في حقل المخطوطات الإسلامية المنتشرة في بلاد العالم الإسلامي، فإن كل ذلك يتطلّب تضافر الجهود وتعاون الجميع بحيث يمكن تكوين هيئة إسلامية عامة تضم في عضويتها المؤسسات العامة والخاصة، الحكومية والأهلية، وكذلك الأفراد العاملين في هذا المجال، على أن يشارك كلٌّ على قدر الطاقة، ويمكن وضع نظام تأسيسي يحدّد الأهداف العامة، كما يبيّن أسس الانضمام إلى عضوية هذه الهيئة وأنواع العضوية وكل ما يتعلّق بالنظام الأساسي،وكذلك يمكن وضع لوائح تنظيمية داخلية لهذه المؤسسة.

المهمّ في كلّ ذلك ضمان مشاركة معظم المهتمّين بالمخطوطات لضمان الوصول إلى نتائج عمليّة قابلة للتنفيذ في معظم بلاد العالم الإسلامي.

خامسًا - ما هو دَوْر العلماء والباحثين والمحققين في إنجاح هذا المشروع؟

مما لا شك فيه أنَّ نجاح أي مشروع يحتاج إلى تعاون وثيق وبنَّاء بين جميع الأطراف المعنيَّة به، وأنَّ العلماء والباحثين والمحققين يشكلون طرفًا أساسيًا ومهمًّا في تنفيذ هذا المشروع، ومن ثمَّ في إنجاحه.

إنَّ الدَّوْر الذي يمكن أن يقوم به العلماء والباحثون والمحققون يمكن أن يكون فيما يلي:

١ ـ وضع أسس خطّة تعاون منهجي وواقعي بين بعضهم بعضًا وبين المؤسسات التابعين لها أو التي يتعاملون معها.

٢ ـ وضع خطط عمل مرحليّة، قصيرة ومتوسطة وطويلة الأجل، يمكنهم من خلالها تنفيذ مشروع الإحياء الإسلامي.

٣ ـ تحديد أُطُر الإحياء المطلوب العمل على أساسها، وأقصد بذلك تحديد مجالات الإحياء في كل مرحلة من مراحل العمل، وذلك باختيار المخطوطات التي سيجري تحقيقها والتي يتناسب موضوعها مع أهداف كل مرحلة.

٤ ـ توزيع العمل بين العلماء والباحثين والمحققين على ضوء خبراتهم وإمكاناتهم العلمية.

٥ ـ تسهيل تبادل الخبرات والمعلومات بين العلماء والباحثين والمحققين لرفع مستوى العمل المطلوب إنتاجه، وللتقليل من هدر الجهود والطاقات والإمكانات المبذولة.

سادسًا : ما هي أشكال التعاون بين مالكي المخطوطات أو المصوّرات عنها .

من مؤسسات ثقافية ومراكز بحوث ومعاهد متخصصة وأفراد وغيرهم، وبين العاملين في مجالات البحث والتحقيق؟

هنا تكمن عقدة العُقد أو مشكلة المشاكل في عملية الحصول على المخطوطات بغية دراستها أو تحقيقها، فالعديد من المؤسسات والمراكز الثقافية التي لديها مخطوطات أو الأفراد الذين يمتلكون مخطوطات، يضنّون بها على العلماء والباحثين والمحققين، ويحرمونهم من إمكانية الإطلاع عليها أو نسخها أو الحصول على صورة عنها،

لأسباب يقدّرونها هم فقط، وبعضهم المتساهل في هذا الأمر، يضع شروطًا قاسية أو تعجيزيّة أحيانًا.

ونسأل عن حلّ لهذه المشكلة، ونحاول إيجاد الوسائل الممكنة للحصول على صُوَر المخطوطات من الذين يمتلكونها، وكثيرًا ما تذهب جهودنا أدراج الرياح، ونُكرّر المحاولة تلو المحاولة، وأحيانًا نصل إلى نتيجة وأحيانًا أخرى لا، فيتملّكنا اليأس من إمكانية تحقيق ذلك.

وهنا لا بدّ من إيجاد حلٍّ لهذه المشكلة باقتراح الحلول المناسبة لها، والتي تُرضي جميع الأطراف، وتحقق الهدف الأساسي الذي نسعى جميعًا إلى تحقيقه، وهو مشروع الإحياء الإسلامي. ولا يمكن أن يتحقق إلاّ باجتماع مصارحة بين المالكين للمخطوطات والعاملين على دراستها وتحقيقها، للوصول إلى تفاهم حقيقيّ بين الطرفين. وقد يسفر هذا الاجتماع عن وضع صيغة تعاون، تصادق عليها جميع الأطراف المعنيّة بهذا المشروع وتلتزم بتنفيذها،دون وضع عراقيل جديدة أمام عملية التنفيذ.

إنَّ حلَّ هذه المشكلة المعضلة تفترض التنازل قليلاً عن الرغبة في الاستئثار الفردي لصالح الخدمة العامة، التي ستستفيد منها الأمّة بأسرها، ولو ظلّت هذه المخطوطات حبيسة الخزائن المغلقة فلن يستفيد منها أحد، حتى ولا مالكوها، ولا نظن أنَّ حرمان الآخرين من المعرفة عملٌ يُرضي أخلاقنا وتوجّهاتنا الإسلامية.

سابعًا - ما هي أشكال التعاون بين المحققين من جهة، وبين مؤسسات نشر التراث من جهة ثانية؟

علينا هنا أن نميّز بين نوعين من مؤسسات نشر التراث:

١ ـ مؤسسات تجارية تابعة لأفراد أو لشركات تجارية.

٢ ـ مؤسسات غير تجارية تابعة لجامعات أو مراكز ثقافية أو ما شابه.

أما المؤسسات التجارية فهي في معظمها تهدف إلى الربح المادي ولو على حساب الجودة أو الأمانة العلمية أو حقوق المحققين والباحثين، ومثل هذه المؤسسات كثيرة في العالم العربي، وقد عانى المتعاملون معها الكثير وما زالوا يعانون من المشكلات العلمية

والمادية أيضًا. وليس هناك من سبيل حتى الآن لضمان الجودة والنوعية في الإنتاج، إلاّ إذا كان على حساب المحققين والباحثين أنفسهم، بحيث يتنازلون عن قسم من حقوقهم المادية إرضاء للنزعة العلمية التي يتحلّون بها.

أما المؤسسات غير التجارية فإنها لا تبغي الربح من وراء نشر كتب التراث، بل تطلب الجودة في العمل والدقّة في التحقيق، بما يتوافق مع الأسس العلمية المتعارف عليها؛ وهذا ما يجعل التعامل معها أفضل وأيسر. لكن هذه المؤسسات تشكو في معظمها من التباطؤ الإداري في اتخاذ القرارات أو الموافقة على عقود العمل التي تجريها مع المحققين والباحثين.

وحتى لا تبقى المشكلات بلا حلول، لا بدّ من وضع معايير علمية، على المؤسسات التجارية التي تنشر تراثنا أن تلتزم بها التزامًا أدبيًا وقانونيًا، ويمكن للجنة متخصصة أن تضع مثل هذه المعايير وأصول الالتزام بها تحت طائلة المسؤولية.

كما أن على المؤسسات غير التجارية أن تحاول التخفيف من الإجراءات الإدارية مع الاحتفاظ بالشروط العلمية التي تفرضها في عملية تحقيق التراث، حتى يأتي العمل على المستوى العلمي المطلوب، والذي يستحقّه تراثنا العظيم.

إن عقد لقاء مصارحة يتّسم بالشفافية والصدق، قد يساعد في وضع أسس التعاون المنشود بين العاملين في مجال البحث والتحقيق من جهة، وبين مؤسسات نشر التراث من جهة ثانية، بما يحفظ عملية تحقيق تراثنا من الخفّة والتهاون واللامبالاة، ويحفظ حقوق أصحاب دور النشر وحقوق المتعاملين معها إلى السواء.

ثامنًا - كيف يمكن الاستفادة من التقانات الحديثة كالكومبيوتر مثلاً في تسهيل تبادل المخطوطات أو الاطلاع عليها أو الحصول على مصوّرات عنها؟

لقد أصبح من الممكن الاستفادة من التقانات الحديثة في تسهيل عمليات تبادل

المخطوطات أو الاطلاع عليها أو الحصول عـل مـصوّرات عنـها، وذلـك بفـضل هـذه التقانات المتطوّرة، والتي لم يعد مقبولاً تجنّب استخدامها أو تأخير هذا الاستخدام.

من ذلك مثلاً نشر فهارس المخطوطات على أقـراص مُدمجـة CD مبرمجـة، بحيـث يسهل البحث على عنوان المخطوطة واسم المؤلف واسم الناسخ وتاريخ النـسخ وعـدد النُّسخ الموجودة، وغير ذلك من المعلومات الأولية التي يحتاجها الباحث أو المحقق.

إضافة إلى ما سبق فإن تصوير المخطوطات على أقراص مدمجة، بهدف حفظ صُـور عنها أو إرسال صورة لمخطوطة يريد الباحث دراستها والاستفادة منها، أو لمحقـق يريـد تحقيقها بغية نشرها، أصبحت عملية سهلة وأكثر فائدة من تصويرها على ميكروفـيش أو ميكروفـيلم، خاصة وأن قراءتها أو الحصول عل صورة منها مطابقـة للأصـل بكـل الدقائق والصفات والمميزات التي تتميّز بها أصبحت أكثر سهولة وإمكانًا مـن أي وقـت مضى. ولا يفوتنا القول إننا يمكـن أن نحـصل علـى صـورة لهـذه المخطوطـة أو تلـك بالألوان، أي صورة طبق الأصل عن المخطوطة، حيث كثيرًا ما يلجأ المؤلف أو الناسـخ إلى استعمال المداد الأحمر مثلاً لأسماء الفصول أو الأبواب أو الرموز أو الآيات أو المتون أو ما إلى ذلك،أو يضمّن كتابه بعض الرسـوم أو الـصُّوَر الـضرورية الموضـحة لكلامـه بالألوان أيضًا، ولا ننسى ما قد يفعله بعض النُّسّاخ من تزيين أو ما شابه ذلك،وكل هذا لا يستفـيد منه الباحث على الوجه الأكمل، نظرًا لصعوبة الوقوف عليه إذا كان التصوير قد اتبع الأسلوب القديم، أي التصوير بواسطة الميكروفـيلم. وقد قمت بتجربـة ناجحـة أضعها بتصرّف المهتمّين بهذا الأمر، مع أنـها تجربة متواضعة لكنها مفـيدة فـي الوقت ذاته.

إن تحقيق هذا الأمر لا يحتاج لأكثر من آلة تصوير سكانر تربط بجهـاز الكومبيـوتر وتنقل صورة المخطوط إلى القرص المـدمج. وإذا عرفنـا أن جهـاز الكومبيـوتر أصـبح متوافرًا لدى معظم الباحـثين والمحققين، فإن اسـتخدام الأقـراص المدمجـة يـصبح أكثـر سهولة عندهم.

تاسعًا: كيف يمكن تسهيل التعرّف على مقتنيات المؤسسات (الجامعات والمراكز والمعاهد) والأفراد، من مخطوطات تخدم مشروع الإحياء الإسلامي؟

إنَّ تنفيذ مشروع الإحياء الإسلامي يبدأ بالتعرّف على مقتنيات المؤسسات والأفراد من مخطوطات التراث الإسلامي، ومن دون التعرّف عليها لا يمكن البدء بتنفيذ المشروع.

لكن هناك خطوة مهمة أيضًا تسبق عملية التعرّف على المقتنيات، ألا وهي التعرّف على أماكن وجودها، بمعنى أن نتعرّف أوّلاً على المؤسسات والأفراد الذين يملكون هذه المخطوطات، ومن ثَمَّ تبدأ الخطوة الثانية وهي التعرّف على المقتنيات.

ولا بدَّ هنا من إشاعة عملية فهرسة المخطوطات، والقيام بها بأسلوب علميّ موحَّد متفق عليه، وقد يحتاج الأمر إلى عقد ندوة خاصة لدراسة شؤون الفهرسة وإشكالياتها وتوحيد أساليبها، مما يساعد الباحثين في الحصول على المعلومات المطلوبة بشكل سريع وجيّد، فتوحيد الرؤية للعمل خطوة هامة في توحيد العمل ذاته، وإحياء روح التعاون بين الباحثين من جهة وبين المؤسسات الثقافية والفكرية التي تُعنى بالتراث من جهة ثانية.

تبقى مشكلة أخرى، وهي مشكلة توزيع الفهارس ونشرها ؛ فمن المعلوم أنَّ هذه الفهارس ليست كتبًا للنشر والتوزيع العام،لذا تلجأ بعض المؤسسات أو الجامعات أو المراكز الثقافية إلى طبع عدد قليل من فهارسها لا يلبّي حاجة الباحثين والمحققين، كما تلجأ بعض المؤسسات إلى توزيع فهارسها على عدد قليل من الجامعات أو المراكز الثقافية التي تربطها بها اتفاقات تبادل ثقافي، وهذا عمل جيد ولكنه غير كافٍ، لذا نتمنّى على هذه المؤسسات التي تطبع فهارس مخطوطاتها أن تنشرها على نطاق واسع وتُدخلها ضمن منشوراتها وتسهّل توزيعها على المهتمين بالتراث وبدراسته وتحقيقه.

وحبّذا لو تقوم هذه المؤسسات بالاستفادة من التقانات الحديثة، فتطبع فهارسها على أقراص مُدمجة، فيسهل تناولها والتعامل معها والبحث فيها، وكذلك نسخها وتوزيعها دون مشقّة أو تكلفة كبيرة. وكم يكون مفيدًا لو تتعاون المؤسسات المقتدرة ماديًا مع المؤسسات غير المقتدرة، في دعم مشاريع الفهرسة لديها، فيعمّ الخير الجميع.

عاشرًا : كيف يمكن تجاوز مشكلة مُلكيّة المخطوطات لتصبح وقفاً إسلامياً، والانتقال من الرغبة في تملّكها إلى الرغبة في نشر العلوم التي تحتويها؟

من المعلوم أن المخطوطات عمومًا، أو على الأقل بعضها، يُعدُّ كنـزًا ثمينًـا لا يجـوز التفريط به، بل تجب المحافظة عليه وصيانته والاعتناء به على الدوام؛ وهذا أمر مـشروع ومطلوب فـي آنٍ معًا، لكن المطلوب أيضًا أن لا يبقـى هـذا الكنـز رهـين المحبـسين، محبس الجهل به ومحبس عدم نشره. فمن حقّ أجيالنا أن تتعرّف تـراث أمتـها العريـق، وأن تستفـيد منه فـي بناء مستقبلها، الذي يحـاول الآخـرون أن يبنـوه لـها، لا كمـا تقتضيه مصلحة هذه الأجيال، بل كما تقتضيه مصالحهم، خاصة أنّ سياسة التغريب عن حضارتنا وثقافتنا آخذة فـي الانتشار بين أجيالنا.

وهنا لا نطالب بنـزع ملكية المخطوطات من مالكيها، فهذا مطلب غـير مـشروع لا ندعو إليه، بل ما نتمنّاه أن يشعر مالكو المخطوطـات أنّ للأجيـال حقًـا علـيهم فـي الاطلاع عليها، وأنـها إرث الأمة، ولها حقّ الانتفاع بـها. وقد يتحقـق ذلـك إذا وافـق مالكو المخطوطات أن تصبح وقفًا إسلاميًا، وأن يكونوا هم المتولّون على هذا الوقف.

ولا أدري إن كان اقتراحي هذا حلمًا أو أملاً بعيد المنال، لكن الرغبة فـي نشر العلم هي التي حدت بي إلى ذكره.

إن مشروع الإحياء الإسلامي يصبح أكثر واقعية وأقرب للتنفـيذ إذا سُـمح للعلمـاء والباحثين الاطلاع على تراثنا الذي خلّفه الأجداد للأحفاد، وأخشى أن تحلّ علينا لعنة الأجداد إذا علموا أننا نحرم الأحفاد مما تركوه لهم.

إنَّ للمخطوطات دورًا مهمًا فـي مشروع الإحياء الإسلامي إذا ما نظرنا إليـه بعـينٍ صادقة وبعقول متفتّحة، وقلوب تغمرها محبة العمل الجماعيّ البنّـاء، رغبـة فـي نـشر العلم، لأن زكاة العلم نشره، لا منعه عن طالبيه.

أرجو أن أكون قد وُفِّقت فـي طرح هذه التـساؤلات، وأتمنّـى أن تكـون إجابـاتي عنها قد ساهمت فـي إنارة بعض جوانبها.